لطمة على خد ...

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ١ —

هذا المجلس الحافل بأسباب الأنس والمسرة، الحالي بالزهر والريحان، وبالقيان والندمان على الربوة المشية الظليلة في أعلى «اليرموك» — قد حان أن يُطوى بساطه فليس فيه بعد اليوم أنيس ولا سامر ...

وشيخ أبٍ كم تأسي به ... وأم دعا قلبها وابتهل
وتُلقى على غده أمةٌ ... رجاها وترقب فيه البطل

أجاب إلى الموت داعي الفداء ... وجن اشتياقاً ليوم اللقاء
وخاض المنايا على هولها ... وأوغل في حرها كيف شاء
وكيف تخاف الردى نفسه ... وفي مصرع الحر أقوى البقاء!

وكم بعث الموت من عاصفه ... بها الأرض من حوله راجفه
وكم جن فيها جنون القتال ... وزلزل من أنفسٍ واجفه
وكم أقدم البطل المستميت ... ومن موته رعدةٌ قاصفه

وكم بات تنزف منه الجراح ... وأناته أغنيات الكفاح
وينفو وفي نفسه ومضة ... تريه المنية نصراً يتاح
فها الموت يحيا موات النفوس ... وتنهث العزمات الصحاح

(البقية في العدد القادم)

التعريف

وهذه الأباريق في أيدي الشقاة المُرد يطوفون بها على ندمان الملك ليفرغوا في كأس كل نديم جرعةً من خمر وفي قلبه لذعة من جمر — يوشك أن يفرغ ما فيها من الشراب وتفرغ منها أيدي السقاة والندمان ...

وهذه الأقداح المترعة في أيدي القوم تتلامس حافاتها كأن رنينها ضحكات غانيات سُكارى — قد حان أن تتحطم ويُراق ما فيها من الشراب فتنتشي الأرض ويصحو السكارى ...

وهذه المخارق المصفوفة والزرابي المبثوثة والكراسي المنضودة عن يمين صاحب العرش وشماله — يوشك أن ينتثر عقدها وينثتّ جمعها، فليس في أعلى «اليرموك» بعد اليوم عرش ولا تاج ولا صاحب سلطان، وتغدو «مملكة غسان» ذكرى، ويخلُصُ ذكرُ «جبلة» وآباء جبلة من ملوك تحطان في الشام ...

* * *

كذلك كان «جبلة بن الأيهم» ملك غسان يحدث نفسه وأصحابه من حوله يخالسونه نظرات خاشعة فيها قلق وريبة، قد جعلت في أيديهم أقداح الشراب فلا تدنو منها شفة، وأعولت في آذانهم رنات المثاني والعيدان فلا تهتز لها نفسٌ هزة طرب، وعبقت أرواحُ العطر والبخور في جوّ المجلس خانقة، فلا يكاد ذو نفس من ندامى الملك يملأ رئتيه ...

أكان قلقهم وانقباضهم لأنهم يعلمون ما تجيش به نفس الملك في تلك اللحظة من الخواطر السود، أم كان ذلك لأنهم لا يعلمون ...؟

وكانت جارية ناطفة على عودها في صدر المجلس تداعب أوتاره بأنامل رخصة وهي تغني من شعر حسان:

لله درُّ عصابة نادمتهم ... يوماً بجلّق في الزمان الأول
يسقون من ورد البريص عليهمو ... بردى يصفّق بالرحيق السلسل
أولاد جفنة حول قبر أبيهمو ... قبر ابن مارية الكريم المفضل
يُغشَوْن حتى ما تهرُّ كلابهم ... لا يسألون عن السواد المقبل
بيض الوجوه أعفّة أحسابهم ... شُمُّ الأنوف من الطراز الأول

ورفع الملك رأسه وهتف في صوت تتبين فيه مرارة اليأس والأسى:

— حسبك يا فتاة !

وخيم الصمتُ على المكان ، وتعالت بالملك عيونُ ندمائه وبطانته ؛ وتسلل القيان والغلمان واحداً إثر واحد ليهيئوا الملك وأصحابه خلوة ليست كما ألف الملك وألفوا من خلوات الأنس والسعادة ...

وانحدر الملك عن سريره ليقتعد الأرض ، ووضع عن رأسه تاجه ، وانحدر أصحابه عن كراسيهم فجلسوا بين يديه ، وقد أيقنوا أن أمراً ذا بال يوشك أن يحدث أو يسمعوا نبأه ...

ومضت فترة صمت قبل أن يبدأ الملك حديثه إلى نداماه من أشراف غسان ولخم وجذام ؛ ثم نطق :

— قد علمتم يا بني العم ما كان من أمر العرب والروم في هذه الأرض ، فليس لأصحاب « هرقل » بعد اليوم مقام في الشام بعد أن غلبهم هؤلاء العرب النازحون من البادية على أرضهم وديارهم ، وأجلوهم عن أذرعة ، وبُصرى ، وحوران ، وبصرى ، ودمشق ، وأجنادين ، وأذاقوهم الهوان عند «اليرموك» وفي حمص وتوشك أن تسقط في أيديهم حلب وقنسرين في الشمال ، وبيت المقدس في الجنوب ...

وصمت الملك برهة ، وهو يُجيل عينيه فيمن حوله ، ثم استأنف :

— وقد علمتم يا بني العم ما كان لنا من الجاه والسلطان في هذه البقاع ، حيث أقنا لأبناء غسان في الشام عرشاً لم يزل يتوارثه آباؤنا ملكاً عن ملك منذ قرون حتى آل إلينا ، لا العرب من أبناء عمومتنا في الشرق يطمعون أن ينالوه ، ولا الروم في الشمال ؛ فكانت مملكة الغساسنة هي الحجاز بين العرب والروم ، وهي لهؤلاء وأولئك سوق التجارة ، وموئل السلام والحضارة ، قد سالمنا العرب لأنهم إخوتنا في النسب ، وشركاؤنا في التجارة ، وسالمنا الروم لأنهم منا حيث علمتم من الحلف والمودة ، قد رضوا منا بالأتاوة ندفعها كل عام إلى قيصرهم في القسطنطينية ، وبالكتيبة من شبابنا يحاربون معهم تحت رايتنا إذا احتاجوا في بعض حروبهم إلى المدد والمعونة ؛ ولم يكن يدور في وهمي يا بني العم أن تسخر القادر منا ومن حلفائنا الروم سخريتها هذه الأليمة ؛ فنصبح ذات يوم لنرى عرب الشرق قد دخلوا علينا الشام من أقطارها وبانوا يهددون عرش الغساسنة وعرش قسطنطين في وقت معاً ؛ ولكن كل ذلك قد كان ولم يكن لنا بدفعه يدان !

قال كبير القوم :

وقاك الله يا مولاي وجنّبك العوادي ، إن بيننا وبين العرب ما نعلم من النسب ، ومن حسن الجوار والمودة ؛ وقد علمنا إلى ذلك أنهم لم يطرقوا ديارنا غزاة ولا فاتحين ، ولكنهم أهل دين يدعون إليه ، وأصحاب كتاب يؤمنون بما فيه ؛ قد آمنوا بموسى وعيسى ومحمد ؛ فليس بيننا وبينهم من أسباب الخصام إلا أن نؤمن بما آمنوا ، وقد سبقناهم إلى النصرانية ، حين كانوا غارقين في الوثنية يتعبدون لآلهة من طين ؛ فلا علينا إذا سبقونا إلى الوحدانية وتبنا أن نتبعهم ونؤمن بنبيهم ؛ فإن ذلك خليق بأن يجتثّ بيننا وبينهم أسباب الخصام والعداوة ، ولأن ندفع الأتاوة لملك عربي من أبناء عمومتنا في يثرب ، خيرٌ من أن نكون خولاً لقيصر الروم في القسطنطينية ؛ وإني لآمل يا مولاي أن يكون جبلة بن الأيهم في الإسلام أعز سلطاناً منه في الجاهلية ويتسلسل ملك الغساسنة في أبنائك وحفدتك على عرش الشام إلى يوم الدين !

ورفّت ابتسامة على شفتي الملك وهو يقول :

— هو ما قلت يا ابن العم ؛ وإنما بدأتُ الحديث معكم رجاء أن تنتهي إلى ذلك الرأي ؛ فقد عزمتُ منذ اليوم أن أكتب إلى عمر ، أمير المؤمنين في يثرب ، أعلمه بذلك وأستأذنه في القدوم عليه مُسلماً ...

— ٢ —

كان مقدم جبلة بن الأيهم إلى المدينة يوماً مشهوداً ، قد احتشد له الخلق من كل فج ليشهدوا موكب الملك الغساني في أبهته وسلطانه ، قد لبس ثياب الوشي منسوجاً بالفضة والذهب ، وعلى رأسه تاج الغساسنة تتضوّأ خرزاته تحت الشمس ، ويتدلى منه قرط مارية جدته الذي تتحدث به أمثال العرب ، وقد تكنفه عن يمين وشمال ، وأمام ووراء ، خمسمائة من فرسان عك وجفنة ، يلبسون مثله ثياب الوشي ، وتلمع على رءوسهم بيضاتهم ، وتبرق مقابض السيوف في أيديهم .

موكبٌ لم تشهد المدينة مثله منذ كانت ، فلم يبق بها يومئذ أحد إلا خرج يتفرج ، حتى النساء والصبيان ، وحتى الشيوخ والعجزة ؛ صورةٌ فريدة من أمجاد غسان ، أو هي صورة من أمجاد الإسلام في مطلع فجره لم يزل يتحدث عنها التاريخ حتى اليوم ، وإلى الغد ، وإلى الأبد !

والتقى جبلة بن الأيهم وعمر بن الخطاب ، وشهد ملك غسان أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

وأقام جبلة بالمدينة حتى جاء موسم الحج ، فأعد عدته للرحلة إلى مكة ليؤدي الفريضة المكتوبة .

— ٣ —

في صعيد مكة — حيث يلتقي المسلمون كل عام من مشارق الأرض ومغاربها يطوفون بتلك البنية التي أقامها إبراهيم وإسمعيل منذ القدم — لا يتميز ملكٌ من سُوقه ؛ كل الطائفين عُراة إلا من إزار غير مخيط يستر أبدانهم ، ليس على رءوسهم تيجان ولا عمائم ولا قلانس ، حفاة إلا من خفاف لا تستر الأقدام من ظاهر ، حُشودٌ هائلة قد وفدت من الشام واليمن ، ومن عمان والبحرين وحضر موت ، ومن مصر وبلاد البربر ، ومن الدائن والقادسية ، ومن وراء الجبال والرمال والبحار الصاخبة بالموج ؛ لا عربيٌّ في ذلك الحرم ولا أعجمي ، كلهم مسلمون يدينون بهذا الدين الواحد ، هو «جنسهم» حين ينتسبون ، وهو رباط قلوبهم حين يلتقون وحين يفترقون ، تحيتهم حين يلتقون سلام ، وحديثهم تلبيةٌ وتسبيح ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين .

مشهدٌ عميقُ الأثر ، بليغ الدلالة على أسمى معنى من معاني الإخاء والمساواة والمحبة ...

وكان جبلة الغساني يطوف مع الطائفين حول البيت ، عاري الرأس ليس عليه تاج ولا ديباج ، إلا إزاراً غير مخيط قد لفَّ جسده وتدلى عن كتفيه وانجر وراءه ... ومن يمينه وشماله ، وقدامه ومن ورائه ، آلاف من الطائفين قد ائتزروا مثل إزاره ، يتزاحمون بالمناكب ويطأ بعضُهم أقدام بعض ، ولهم ضجيج وعجيج وهتاف باسم الله صاعدٌ إلى السماء ...

وتعثر جبلة في زحمة الطائفين وهمَّ أن يقع ، حين وطئ إزاره طائفٌ من فزارة خلفه ، وحين أنف الملك الغساني فالتفت وراءه مُغضباً ليرى الفزاريَّ الذي وطئ إزاره ، فبرز بزرة أصحاب السلطان ولطم أنف الفزاري فهشمه ...

وعبرت لحظة اضطراب لم تطل ، ثم استأنف الحجيجُ طوافه وهُتافه ؛ لم يقطع ضجيجهم وعجيجهم إلا صيحة هاتف مستصرخ : واعمراه !!

واستمع عمر إلى دعاء المستصرخ فدعاه إليه ...

— من أنت يا رجل ؟

— امرؤ من فزارة ...

— وما دعاك إلى الصراخ في بيت الله وحين طواف الحجيج ؟

— طائف من الطائفين لطمني فهشم أنفي وأسال دمي !

— أتعرفه ؟

— لا أعرفه اسماً ولكني أعرفه صفة ...

— إذن تُعيدك منه !

ووقف الفزاريُّ وإلى جانبه غلام عمر يتصفحان وجوه الناس حين مُنصرَفهم من الطواف ، حتى مرَّ جبلة فأشار إليه الفزاري : هو ذاك !

وسيق ملكُ غسان إلى مجلس أمير المؤمنين عمر ، فأوقف بين يديه ووقف الفزاري يحاذيه كتفاً إلى كتف ...

— ما ذا تقول يا أخا فزارة ؟

— هذا لطمني فهشم أنفي !

— وما تقول يا جبلة ؟

— إنه وطئ إزاري خلفه ، فلولا حُرمة هذا البيت لأخذت الذي فيه عيناه !

قال عمر مغضباً :

— على رسلك يا جبلة ! أما أنت فقد أقررت ، فإما أن ترضيه وإما أقدته منك !

— أتقيده مني وأنا ملك وهو سوقة !

— يا جبلة ، إنه قد جمعك وإياه الإسلام ، فما تفضله بشيء إلا بالتقوى !

— رويدك يا عمر ، لقد — والله — رجوتُ أن أكون

في الإسلام أعزّ مني في الجاهلية ؛ وقد كنتُ من الشرف والمهابة في الجاهلية حيث علمتَ !

— وإني لأرجو لك من العزة بالإسلام ما ترجوه لنفسك ؛ ولكنه أخٌ مسلم يطلب مودةً من أخٍ مسلم !

— إذن أعود إلى النصرانية ... لايطمئن بدويٌّ بوّالٌ على عقبيه !

— إن تنصرت ضربت عنقك !

انطبقت شفتا جبلة على كلام كثير لم يلفظه ، على حين ارتفعت أصوات كثيرة من وراء .

أولئك شيعة الغزاري وقومُ جبلة يتلاحَظون حتى توشك أن تقع بينهم فتنة .

وغامت سحابة من الهم على جبين الملك ، وصمت برهة ثم نطق :

— أخبرني إلى قد يا أمير المؤمنين .

— لك ذلك يا جبلة !

— ٤ —

لم ينكر أحد في البادية أمر تلك القافلة التي تُنفِذُ السير في جنح الليل متجهة إلى الغرب ؛ ليس في سمات هذا الركب ما يبعث الريبة ... جماعة من البدو أو من الحضر على ظهور دوابهم ، قد جعلوا يثرب وراء ظهورهم إلى غاية يقصدونها ، وما أكثر قوافل البدو والحضر على ذلك الطريق في تلك الأيام . لعلهم بعض المتطوعة يقصدون إلى الشام مدداً للمجاهدين ، أو لعلهم بعض التجار ... لم يخطر في وهم أحد رآهم أنهم أشراف لخم وجذام وغسان ، وأن معهم جبلة بن الأيهم ، صاحب القرط والتاج وعرش جلق الفيحاء ...

وانتهت القافلة إلى تخوم الروم ، ثم استأنفت السير إلى القسطنطينية . وفي ضيافة قيصر ، أقام جبلة بن الأيهم ، آخر ملوك غسان ، عزيزاً مكرّماً ، قد أقطعه القيصر قصراً ملوكياً ، وأوقف على بابه القهارمة والحجاب والعدد الجم من الرجال والفرسان ؛ وفي مجلسه من ذلك القصر الملوكي كلُّ ما تتوق إليه نفسٌ من أسباب الترف والبهجة ، وكل مظاهر العز والسلطان . مجلسه عرش وتاج ، وقهارمة وحجاب ، ووزراء ومستشارون ؛ ولكن حدود مملكته لا تتجاوز جدران قصره ؛ وما ذا يعنيه أن تكون مساحة مملكته ، ما دام له مجلسه وعرشه وتاجه وكلٌّ من حوله يأمرون بأمره ويمنون لسلطانه ؟ وما عسى أنهى الملك إلا ذاك ؟ ...

وتراخت السنون ، وانبسط ملك العرب في الشرق والغرب ، وفي الشمال والجنوب ، حتى تاخموا الروم في عُقر بلادهم ...

ووفد رجل من أصحاب عمر بن الخطاب إلى القسطنطينية ذات يوم رسولا إلى قيصر في شأن مما يتراسل من أجله الملوك ، فرغبت نفس الرجل في زيارة جبلة في قصره ذاك ؛ فلم يزل يتلطف في الإذن حتى أذن له ... فدخل إليه مجلسه ... ورأى رجلا أصهب ذا سبال ، وكان عهده بجبلة أسمر أسود اللحية والرأس ؛ فلما نظر إليه أنكره ، ثم عرفه ، ذلك أن جبلة دعا بمُسحاة الذهب فنوّرها في لحيته حتى عاد أصهب ، وكان قاعداً على سرير من قوارير قوائمه أربعة أسود من ذهب . فلما عرف جبلة الرسول رفعه معه إلى السرير ، وجعل يسائله عن المسلمين ، وعن عمر ، وعما فتح الله على المسلمين من البلدان والممالك ، والرسول يجيبه عن كل ما يسأل ، وجبلة يسمع وشفتاه تختلجان ، وعلى وجهه تتعاقب ألوان ...

ثم أومأ جبلةُ إلى خادم بين يديه ، فذهب مسرعاً ، وإذا خدم قد جاءوا يحملون الصناديق فيها الطعام ، فوُضعت ، ونصبت موائد الذهب وصحاف الفضة ، فأكل جبلة وأكل ضيفه ، فلما رُفع الطعام جيء بطاس الفضة وأباريق الذهب ، فتغسلوا أيديهم ؛ ثم أومأ جبلة إلى خادم بين يديه ، فمر مسرعاً ، وإذا خدم معهن الكراسي مرصعة بالجوهر ، فوضعت عشرة عن يمينه وعشرة عن يساره ، ثم اقتربت أصوات ناعمة ، وإذا عشر جوار مطموسات الشعر متكسرات في الحلي عليهن ثياب الديباج لم ير مثل جمالهن ذو عينين ، فأقعدن عن يمين الملك ، ثم اقتربت أصوات ناعمة ، وإذا عشر جوار أخرى ، فأجلسن على الكراسي عن يساره ، ثم سمع صوت رقيق فاتن ، وإذا جارية كأنها الشمس حسناً ، على رأسها التاج ، وعلى ذلك التاج طائر ذو جناحين ، وفي منقاره جامة فيها ماء ورد ، فأومأت الجارية إلى الطائر ، فطار عن رأسها حتى وقع في جامة ماء الورد ، فاضطرب فيه لحظة ؛ ثم

أومأت إليه ثانية ، فطار حتى نزل على صليب في تاج جبلة ، فلم يزل يرفرف حتى نفض ما في ريشه من ماء الورد على التاج ؛ وابتسم جبلة ، ثم التفت إلى الجواري اللاتي من يمينه ، فاندفعن يتغنين : يخفقن بعيدانهن ويقلن من شعر حسان :

لله در عصـــابة نادمتهم ... ...

ثم التفت إلى الجواري اللاتي من يساره ، فاندفعن يتغنين :

لمن الديارُ أقفرتْ بحمانِ بين أعلى اليرموك فالصمانِ

ولمست دمستان في عيني جبلة ، ثم انحدرتا حتى توارتا في لحيته ، واختلجت شفتاه اختلاجة هم وأسى . قال له ضيفه العربي دهشاً :

— أتبكي يا جبلة وأنت من هذا النعيم فيما لا يخطر على قلب بشر ؟ ! -

قال جبلة وقد تتابعت عيناه :

— هيهات هيهات يا أخي ؛ تمنيتُ لو لم يكن كلُّ ما كان وعشتُ بين العرب واحداً من قومي !

قال صاحبه :

— ويلطمك فزاري على أنفك فيهشمه كما هشمت أنفه !

— ويلطمني فزاري على أنفي أو يلطمني عمر ؛ فذاك أعزُّ لي من شتات داري وجوار غير أهلي ...

ثم غلبه ندمه ، وحضرته أشجانه ؛ فراح ينشد :

تنصرت الأشرافُ من عار لطمة وما كان فيها لو صبرت لها ضررْ
تكنفني منها لجاجٌ ونخوة ويمنعها العين الصحيحة بالعور
فياليت أمي لم تلدني وليتني رجعت إلى الأمر الذي قال لي عمر
وياليتني أرعى الغماض بقفرة وكنت أسيراً في ربيعة أو مضر
ويا ليت لي بالشام أدنى معيشـــة
أجالس قومي ذاهب السمع والبصر !

— ٥ —

قال عمر ، وقد عاد إليه رسوله من القسطنطينية فوصف له ما رأى وما سمع :

— رجوت أن يشرح الله صدره للإسلام ويهديه إلى الخير ؛ فهلا متَّ به — لو أناب إلى الله — بأن يكون في الإسلام عزيزاً مكرَّماً ؟

قال الرجل :

— أحسبه — يا أمير المؤمنين — أهلا للإنابة والفيء إلى الله ، لو ضمن أن يكون له في الإسلام عرش وتاج ، وأن يزوجه أمير المؤمنين إحدى بناته ليكون له إلا الإمارة سبب !

فابتسم عمر وقال :

— أما صهري فهو — والله — كفء ؛ وأما الإمارة فوددت لو أنه علم أنها ليست مغنماً يُرجى ولكنها تكليف يُخدم . إذهب إليه عني أمري فادعه إلى الحضور على شرطه !

وعاد الرسول من حيث أتى يريد جبلة في قمرة بالقسطنطينية ليبلغه رسالة عمر ، ولكنه لم يكد يبلغ حاضرة الروم حتى لقي الناس أفاعين من تشييع جنازة جبلة بن الأيهم !

ومات آخر ملوك الغساسنة على الجاهلية وغلبته شقوة الأبد ؛ ترفعاً بنفسه عن المساواة برجل من قومه !.

محمد سعيد العريان

وزارة الحربية والبحرية

السلاح البحري الملكي — إعلان

يقبل السلاح البحري الملكي برأس التين بإسكندرية عطاءات لغاية ظهر يوم ١٩٤٩/١/١٦ من توريد مراوح ومثاقيب كهربائية وعدد للصنايعية والشروط والمواصفات يمكن طلبها يومياً من رئاسة السلاح المذكور نظير دفع مبلغ ٢٥٠ مليم.

٩١٤